الفصل الرابع عشر

تأسيس الحزب الوطني (حزب الجلاء)

كان اسم (الحزب الوطني) يطلق منذ بداية ظهور مصطفى كامل على جماعة الوطنيين الذين ينادون بالاستقلال والجلاء، وكان الفقيد يعتبره موجودًا منذ الساعة الأولى، والصحف الأوربية تعبر عن أنصاره بالحزب الوطني على أنه لم يكن ثمة حزب منظم له رئيس وأعضاء ومجلس إدارة، ولكنه كان موجودًا بالفعل كفكرة تضم حولها الأنصار والمجاهدين، قال مصطفى كامل في هذا الصدد في (لواء ١٠ أكتوبر سنة ١٩٠٧م): «إن الحزب الوطني المصري الذي جعل أول مراميه وأسمى غاياته استقلال مصر ورد حقوقها إليها موجود فيها فعلًا من ثلاثة عشر عامًا مضت، فهو وإن لم يظهر بشكل نظامي وبلائحة ولجنة إدارة قد ظهر بأعمال اتفق أعضاؤه على خدمة البلاد بكل قوة، قاوم الاحتلال في أوربا ومصر مقاومة شهدها كل المصريين والغربيين، وارتبط بروابط أكيدة مع جملة من سواس أوربا، ولما حدثت حادثة (فاشودة) ضعفت همم بعض رجال الحزب، كما انفصل عنه بعض أفراد لتمكن اليأس من قلوبهم، وثبت في موقفه من أعتقد أن في نهضة الأمة بنفسها سلامتها وبلوغها كل مأربها».

وقال «فريد بك» في هذا الصدد: «قضى رحمه الله خمس عشرة سنة من حياته -أي منذ كانت سنه تسعة عشر عامًا- في تكوين الحزب الوطني، فابتدأ بأن جمع حوله بعض إخوانه المخلصين، وكوَّن منهم جماعة مخلصة له ولعمله».

ثم فكر سنة (١٩٠٠م) في جعل الحزب حزبًا منظمًا على غرار الأحزاب الأخرى الأوربية، وكتب في عدد (٢ يولية سنة ١٩٠٠ من اللواء) مقالًا بعنوان (حزب وطني حر في مصر)، أعرب فيه عن أمنيته في تأسيس هذا الحزب، كتب مقاله هذا من (بودابست)، حيث أعجبه ما رآه من وطنية الشعب المجري؛ قال في هذا الصدد:

«إنَّ تاريخ هذا الوطن المجري هو أكبر مدرسة لرجل مثلي وهب حياته لخدمة وطنه وإعلاء شأنه». وختم مقاله بقوله: «هل يسمح لي الزمان بأن أرى في مصر هذا الحزب الوطني الحر الشريف المبادئ، المتحد الأعضاء، الناهض بالأمة إلى مراقي النجاح والفلاح؟ إني أعرف أن اليائسين سيقولون: إن (تأسيس حزب كهذا أمر محال)؛ ولكني إذا كنت لا أيأس من خلاص بلادي فمحال عليَّ أن أيأس من تحقيق هذا الأمر الجليل».

وفي سنة (١٩٠٧م) اعتزم تنفيذ فكرته بوضع نظام للحزب الوطني، وفي ذلك يقول في لواء (١٠ أكتوبر سنة ١٩٠٧م): «ولما كان لكل عمل وقت فقد جاء الوقت لأن يوضع للحزب الوطني نظام تام بجمع كافة رجاله وأنصاره ومحبيه الذين مضوا السنوات وهم مشاركون لنا في العمل بكل أنواع المشاركة، وإني من ساعة وصولي الإسكندرية (٧ أكتوبر سنة ١٩٠٧م) إلى هذه الساعة وكل واحد من رجال هذا الحزب وأبطاله الكرام يطالبني بوضع هذا النظام بصورة نهائية حتى يتم التعاون بين جميع المخلصين لبلادهم، المحبين لأمتهم، المتشربين بمبادئ الشهامة والإرداة والصدق والإقدام فتكون الخدمة أجل وأكبر، والعمل أفيد وأعظم».

خطبته الكبرى بالإسكندرية (٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧م)

وقد اعتزم عقب عودته من أوربا إلقاء خطبة كبرى بالإسكندرية جعلها بمثابة دعوة عامة إلى الانضمام إلى الحزب الوطني، واتخذ (الجلاء) مبدأ للحزب حتى صار أصح تعريف له أنه (حزب الجلاء).

كانت هذه الخطبة أكبر خطبة سياسية وطنية ألقاها في حياته، وأحدثت من التأثير ما لم تحدثه أية خطبة أخرى، وهي لا تزال ماثلة في الأذهان أكثر من أية خطابة أو كتابة للفقيد، وقد حدد لإلقائها (مساء الثلاثاء ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧م) بمسرح زيزينيا. وما أن أعلن اللواء عن موعد إلقائها حتى انهالت الطلبات من الراغبين في سماعها، وفي مساء ذلك اليوم ازدحم المسرح على سعته بالحاضرين الذين جاءوا من كل

صوب لسماع تلك الخطبة، وجلهم من علية القوم وفضلائهم وذوي المكانة الأدبية، والشباب المثقف، وكل ذي وطنية صادقة، حتى زخر المكان بهم، ولم يتسع لهم، فوقف الكثيرون منهم في حديقة المسرح وفي الشوارع المجاورة له، وبلغ عدد الحاضرين نحو سبعة آلاف، وهو أكبر عدد اجتمع لسماع الخطيب وما أن ظهر على منصة الخطابة في منتصف الساعة التاسعة مساء حتى ضجَّ المكان بالتهليل والتصفيق الشديد، وهتفوا جميعًا: «لتحيى مصر، ليحيى خدام الوطن، لتحيى الوطنية».

ثم أخذ الفقيد يلقي خطبته، ولم يكن يقف عند موضع يحسن الوقوف عنده إلا دوى المكان بالتصفيق وإظهار علامات الرضا والاستحسان، ولما تكرر التصفيق اضطر الفقيد أن يتقدم إلى السامعين بالرجاء ألا يصفقوا ففعلوا، ثم عادوا إلى التصفيق، واستغرق إلقاء الخطبة نحو ساعة ونصف.

والخطبة هي أقوى خطب الفقيد وأعظمها شأنًا؛ بل كانت أعظم خطبة ألقيت في مصر والشرق منذ أقدم العصور، بدأها بشكر الحاضرين، ثم تكلم عن حياة مصر الوطنية بعد الاتفاق الودي الفرنسي الإنجليزي، ونوه بالخطوات الواسعة التي خطتها الحركة الوطنية برغم هذا الاتفاق، بعد أن كان الإنجليز يظنون أنه سيقضى على أمل الأمة، وأبان أن اعتماد الأمة على نفسها هو سبيلها إلى الاستقلال.

قال في هذا الصدد:

«إنَّ العزلة التي صرنا إليها بعثت فينا روحًا جديدة وأرشدتنا إلى الحقيقة التي لا قوام لشعب بدونها ولا حياة لأمة بغيرها، ولا وجود لنفر من الناس إذا لم يتبعوها، وهي أن الأمم لا تنهض إلا بنفسها ولا تسترد استقلالها إلا بمجهوداتها، وأن الشعب كالفرد لا يكون آمنًا على نفسه إلا إذا كان قويًّا بنفسه مستجمعًا لكل عدد الدفاع وآلات الذب عن الشرف والمال والحياة».

ودعا الأمة في خطبته إلى الانضمام إلى الحزب الوطني.

وقد تضمنت الخطبة كلمات رائعة للفقيد لا تزال وستظل مضرب الأمثال في قوة الوطنية والثبات في الجهاد، وسنوردها في الفصل الحادي والعشرين تحت عنوان (كلماته الخالدة).

وصف الاجتماع وتأثير الخطبة

كان للخطبة تأثير بالغ في النفوس وفي الأندية السياسية والدوائر الأوربية؛ قالت جريدة «الريفورم» في وصفها ما يأتي:

«لا يتاح للمرء في كل يوم أن يحضر خطبة سياسية في مصر، والحق يقال: إن مصطفى كامل باشا هو الوحيد الذي اتبع طريقة الخطابة، وهو وحده الذي يسمعنا الخطب السياسية في مصر، فكما رأيناه منذ عشر سنوات في تياترو زيزينيا يخطب رأيناه مساء أمس في التياترو نفسه خطيبًا سياسيًّا، وبديهي أن الصحفي لا يدع فرصة تفوته من هذا القبيل؛ بل إن أقل المخبرين والصحفيين مهارة يرى نفسه مضطرًّا إلى الكتابة عن خطبة رجل تمكن من جمع أكثر من ستة آلاف إنسان في مظاهرة وطنية، أضف إلى حشد هذا العدد العظيم جمع عدد من رجال الشرطة، فالصحفي الذي لا يخبر قراءه بمثل هذا الاجتماع هو صحفي مقصر في واجبات وظيفته.

وعلى هذا نقول لقرائنا: إنه ما وافت الساعة الثامنة مساء حتى تقاطرت جماهير الوطنيين إلى تياترو زيزينيا، فملأوا الألواج والكراسي وازدحم الملعب بهم أي مزدحم حتى لم يبق موطئ لقدم؛ بل لقد غصت المماشي والحديقة بالناس يأتون أفواجًا حتى امتلأ بهم الشارع، وقد كان الحاضرون بين باشوات وبكوات عقلاء وأفندية متحمسين، قادمين من جميع جهات الوجه البحري لسماع خطبة «الرئيس» كما يلقبونه بذلك. وكان في الحضور صفوة المحامين والأطباء الوطنيين في الدلتا والقاهرة، وكانت نظرات الذكاء تلمع من خلف نظاراتهم الذهبية، وفيهم كل الشبيبة المصرية من جميع المدارس، أولئك الطلبة الذين ابتدأوا يشعرون بالحياة وتنطبع في قلوبهم العواطف الصادقة، والعقائد السليمة.

كان المنظر فخمًا جليلًا، منظر هذه الطرابيش الحمراء التي ملأت الملعب جميعه وبينها هنا وهناك بعض العمائم البيضاء، كان المنظر جامعًا بين زهور مختلفة من أزهار الإنسانية، كان داعيًا إلى الدرس الفلسفي والاجتماعي، وما أجدر منه بذلك وهو يمثل الألوف من العقول البشرية، وما أجدر منه بالتأمل والتفكير وهو يجمع في جملته طلبة المدارس المصرية هؤلاء الطلبة الذين سيكونون غدًا رجال مصر وقوتها، هم الذين كانوا أشد استحسانًا وتصفيقًا لخطبة مصطفى كامل، وأكثر تحية وإجلالًا له. إن أذن الأوربي المتعودة سماع الفصاحة الغربية قد لا تألف الفصاحة الشرقية ولا تتأثر كثيرًا بنبرات صوت الخطيب الشرقي وتنقله بين ارتفاع وانحدار وغير ذلك مما يناسب مقام التأثير على السامعين، ولكن هذا الشأن لا يصدق علينا نحن الذين عشنا في مصر عشرات من السنين وألفنا سماع الفصاحة الشرقية وما فيها من قوة التأثير وحسن الإنشاء والتوقيع وجزالة اللفظ ورقة المعنى، ولقد كان الخطيب جامعًا لكل ذلك وتأثيره شديدًا في الحاضرين يمكن اتباع أثره على وجوههم من دقيقة إلى أخرى، كان تأثيره بحيث لم تكف الأيدي عن التصفيق له تصفيقًا صادرًا من أعماق القلوب خاليًا من كل تملق.

إن لهذا الرجل قوة حقيقية على جمهور الوطنيين، ومن ينكر ذلك فهو ينكر الحقيقة الساطعة، إن كلامه مؤثر في النفوس تأثيرًا عظيمًا، على أننا نرى حقًّا علينا مدحه؛ لأنه لم يلعب بهذه العقول التي ملكها، ولم يستخدم تأثيره في الحاضرين لطبع أثر سيئ في النفوس؛ بل كان كلامه غاية في الاعتدال؛ لم يستعمل عبارة حادة ولا استخدم ألفاظًا جارحة، وقد دامت خطبة رصيفنا إلى الساعة العاشرة؛ أي أنه ظل يخطب أكثر من ساعة ونصف دون أن يتولاه أقل تعب. ولما انتهى خطابه صفق له الحاضرون تصفيقًا حادًا، وارتفعت الأصوت قائلة: ليحيى مصطفى كامل ليحيى الحزب الوطني. ويقدر عدد الذين حضروا هذه الخطبة بنحو سبعة آلاف إنسان، وقد انصرفوا بهدوء لم تعد معه فائدة للقوة التي حشدها البوليس».

وكان للخطبة صدى كبير في أوربا، وخصصت لها جريدة (الطان) الفرنسية مقالها الافتتاحي، واقتبست فقرات منها، وأفاضت بنوع خاص فيما ورد في الخطبة عن علاقة الإسلام بالمدنية، وكذلك فعلت جريدة (الفيجارو)، ووصفت (الإكلير) الاجتماع، وأشارت إلى المظاهرة الكبرى التي قوبل بها الفقيد واقتبست فقرات من الخطبة، ونشرت جريدة «الديلي نيوز» الإنجليزية مقالة افتتاحية بحثت فيه حركة الإصلاح التي ظهرت في العالم الإسلامي، وعدت مصطفى كامل باشا الرئيس السياسي للنهضة الإسلامية، وقالت: إنه أقوى صحافي في العالم الإسلامي، وقالت عن الخطبة: إنها غاية في الفصاحة، واستطردت من ذلك إلى انتقاد السياسة التي ترمي إلى صبغ مصر بالصبغة الإنجليزية، وطلبت العفو عن مسجوني دنشواي وتعليم العلوم في المدارس المصرية باللغة العربية.

أول جمعية عمومية للحزب الوطني (٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧م)

وما أن دعا الفقيد الأمة إلى الانضمام للحزب الوطني حتى انهالت طلبات الانضمام إليه من كل جانب، وعقدت أول جمعية للحزب بمصر يوم (الجمعة ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧م) بدار اللواء، وكان اجتماعًا حافلًا تمثلت فيه طبقات الأمة من أعيان ومزارعين وسراة ومحامين وتجار وأطباء ومهندسين وأرباب أعمال وصناع وما إلى ذلك. وأحصيت تذاكر الدعوة التي قدمها المجتمعون فكان عددها (١٠١٩) تذكرة، وبلغ عدد الاعتذارات البرقية والبريدية (٨٤٦) اعتذارًا. وافتتح مصطفى كامل الجمعية العمومية بخطبة نوه فيها بوجود الحزب الوطني من قديم، ثم أشار إلى ضرورة تنظيمه، وقال عن أغراض الحزب:

«إننا لسنا حزبًا سياسيًّا فقط؛ بل نحن قبل كل شيء حزب حياة للأمة وإنهاض لها، فلا نغفل التعليم بين سائر الطبقات لحظة واحدة، وهو يرمي إلى الاستقلال أس كل سعادة، ويعمل لنشر التعليم حتى لا يبقى مصري جاهلًا تحت سماء مصر، ويسعى للوفاق بين الأمة وتقريب المسافة بينها وبين الشعوب الأخرى، وهو يرمي

قبل كل شيء إلى أن يكون المصري إنسانًا بأسمى معاني الكلمة، وأقصد بالمصري ليس فقط ذلك الذي نراه في المدائن يجد ويعمل؛ بل أقصد بنوع خاص ذلك الفلاح الذي قضى القرون من السنين وهو يعتقد أنه ملك للحاكم ومتاع لا إرادة له، فأسمى عمل نقوم به هو إنهاض ذلك الفلاح العزيز وإعلاء مكانته، فهو ممثل النشاط المصري، ومصدر كل خير ونعيم؛ فليحيى عصر ينطق فيه التاريخ بأن الفلاح ألقى أثقال القرون الماضية وصار رجلًا حرًّا بفضل أبناء وطنه المتعلمين المجاهدين في سبيل حريته وسعادته».

ثم قال:

«إننا إذا دعونا الناس للدخول في هذا الحزب لا ندعوهم باسم سلطة عالية أو حاكم نافذ الكلمة؛ بل ندعوهم باسم وطنيتهم، باسم شرفهم، باسم حقوق وطنهم، باسم كرامة الإنسان، باسم ذكريات آبائهم وأجدادهم، باسم مصالح أبنائهم وأحفادهم».

ثم نفى تهمة الثورة التي ينسبها بعض خصومه إليه وتشبيهه بحزب العرابيين، وحمل على سياسة الاستسلام للاحتلال، واستنكر الحكم المطلق، ودعا إلى التمسك بالنظام الدستوري، وحث على الثبات والاتحاد، وقد قوبلت الخطبة بالتصفيق الشديد والاستحسان المتواصل.

ثم ألقى «محمود بك أنيس» كلمة مجَّد فيها أعمال الفقيد وجهاده في سبيل مصر، وانتخب الحاضرون بالإجماع مصطفى كامل رئيسًا للحزب الوطني مدى الحياة، فوقف الفقيد وارتجل فيهم الكلمة الآتية:

«أيها الإخوان:

إنكم حملتموني طول حياتي حملًا ثقيلًا على كاهلي، فأنا قبل كل شيء أشكر لكم ثقتكم بي، هذه الثقة التي كانت عونًا لي في كل أعمالي، وأقول لكم: إنكم أنتم قوتي

وساعدي بصفتكم من خير أمة أوقفت لخدمتها حياتي وقواي وعقلي وقلبي وقلمي ولساني وصحتي، وكم من صديق قال لي: أشفقْ على صحتك التي لا تدخر وسعًا في بذله. ولكن الواجب لبلادي ووطني ينسيني هذه النصائح الثمينة، فأنا الآن إذا قبلت اختياركم لي رئيسًا فإنما هو لثقتي بأن كل واحد منكم أصبح حياتي وشعوري واعتمادي؛ بل صار كل منكم في الشعور الوطني أكبر من مصطفى كامل».

ثم وقف فؤاد بك سليم (باشا) وأخذ يتلو لائحة الحزب مادة فمادة، والحاضرون يبدون رأيهم فيها، وبعد المناقشة صدقوا على نصها النهائي، وأهم ما جاء فيها أن رئيس الحزب هو مصطفى كامل مدى الحياة، وأن الجمعية العمومية للحزب تجتمع مرة في كل سنة في شهر ديسمبر باسم (المؤتمر الوطني)، واختصاصاتها انتخاب اللجنة الإدارية والتصديق على ميزانية الحزب وأعماله، والنظر في اقتراحات الأعضاء، وتقرير كل أمر نافع للبلاد. وتناقش الجمعية في كل اجتماع المسائل الحيوية كافة للقطر المصري، ويبدي الأعضاء آراءهم في كل أمر مهم، وتؤلف من أبحاثهم وأقوالهم مجموعة سنوية باسم (تقرير الحزب الوطني)، وتؤلف اللجنة الإدارية من ثلاثين عضوًا عدا الرئيس، وتنتخب لمدة ثلاث سنوات، وتجتمع مرة في كل شهر على الأقل، وتنتخب وكيلين للحزب وسكرتيرًا وأمين الصندوق لتنفيذ قرارات اللجنة الإدارية، وتجتمع مرة في كل أسبوع على الأقل، وينشأ ناد للحزب وفروع له في الأقاليم.

وبعد التصديق على اللائحة انتخب الحاضرون الأعضاء الثلاثين للجنة الإدارية الأولى؛ وهم: محمد بك فريد، أحمد فائق باشا، حسن حارس باشا، سيد باشا شكري، علي باشا آصف، عمر بك سلطان باشا، محمود بك أنيس، فؤاد بك سليم الحجازي باشا، الأستاذ ويصا واصف (رئيس مجلس النواب سابقًا)، الدكتور حسين يسري بك، محمود بك محرم رستم، يوسف بك ذهني، علي بك فهمي كامل، علي بك حشمت، محمود بك حسيب، عبد الحميد بك عمار، محمد بك حافظ رمضان (باشا)، شمس الدين بك حمودة، إسماعيل بك لبيب، محمد بك خلوصي، محمد بك رشوان،

عبد الرءوف بك السيوفي، يوسف بك حافظ، إبراهيم بك حفظي، عبد الله بك طلعت، علي بك لهيطة، إسماعيل بك الملواني، محمد بك عبد اللطيف، محمود بك فهمي حسين، الدكتور أحمد فهمي الجهيني. وانتهى الاجتماع في الساعة السادسة مساءً، وانتخبت اللجنة الإدارية محمد بك فريد وأحمد فائق باشا وكيلين للحزب، وفؤاد بك سليم (باشا) سكرتيرًا، وعمر بك سلطان أمينًا للصندوق.

وفي (٤ فبراير سنة ١٩٠٨م) استقال عمر بك سلطان (باشا) من أمانة الصندوق مع بقائه عضوًا باللجنة الإدارية، وانتخب علي بك المنزلاوي ومصطفى بك الخادم المحامي عضوين في اللجنة الإدارية بدلًا من سيد باشا شكري وعبد الرءوف بك السيوفي المستقيلين من عضوية اللجنة.

الإفراج عن مسجوني دنشواي

ما فتئ الفقيد يطالب بالعفو عن مسجوني دنشواي؛ لكي يمحي أثر من آثار الظلم الذي وقع بالأبرياء من شهداء هذه الحادثة، ودعا المصريين إلى تقديم العرائض إلى الخديوي بهذا الطلب، وقد لبت الأمة دعوته وأقبل المصريون على رفع العرائض الإجماعية إلى الخديوي في هذا الصدد، وبلغت عدتها (١٤٨) عريضة وقع عليها (١٢٦٧٠) من المصريين، وتردد صدى هذه الحركة في أوربا وإنجلترا؛ إذ طالب بعض النواب الأحرار في البرلمان البريطاني بالإفراج عن مسجوني هذه الحادثة. وكان من نتائج هذه الحركة المزدوجة أن تقرر في (شهر ديسمبر سنة ١٩٠٧م) العفو عنهم، على أن ينفذ العفو في يوم عيد الجلوس الخديوي (٨ يناير سنة ١٩٠٨م). وكان «اللواء» أول من زف إلى الأمة هذه البشرى. ولما اجتمعت الجمعية العمومية للحزب الوطني في يوم (٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧م) بدار اللواء كان من قراراتها إرسال كتاب شكر إلى الخديوي على هذا العفو، وإرسال تلغرافات شكر إلى السيد «هنري كامبل بانرمان» رئيس الوزارة الإنجليزية والمستر «نورمن» النائب بالبرلمان الإنجليزي، وإلى مدير جريدة (الديلي نيوز) على سعيهم في استصدار هذا العفو.

وقد أفرج عن المسجونين الباقين يوم (٧ يناير) لا يوم (٨)، لكي لا تحدث مظاهرات في اليوم المحدد للإفراج عنهم، وكان عددهم تسعة؛ منهم ثلاثة كانوا في سجن الدلتا وهم: «محمد عبد النبي، وأحمد عبد العال محفوظ» وكان محكومًا عليهما بالأشغال الشاقة المؤبدة، و«محمد مصطفى محفوظ»، وكان محكومًا عليه بالسجن سبع سنوات، وواحد كان في سجن أبي زعبل، وهو «العيسوي محمد محفوظ»، وكان محكومًا عليه بسبع سنوات. وخمسة كانوا بليمان طره؛ منهم واحد كان محكومًا عليه بالأشغال الشاقة خمس عشرة سنة، وهو «أحمد محمد السيسي». والباقون كان محكومًا على كل منهم بالسجن سبع سنوات، وهم: «عبده البقلي، ورسلان السيد علي، وعلي سمك، وعلي علي شعلان».

وقد قوبل نبأ الإفراج عنهم بالاستحسان والابتهاج العام في البلاد، وهرع الذين خرجوا من السجن إلى القاهرة قاصدين دار (اللواء) ليقابلوا الفقيد ويقدموا له شكرهم على دفاعه المجيد عنهم، ويعربوا له عن اعترافهم بجميله؛ إذ كان صاحب الفضل في إطلاق سراحهم، ولكن الزعيم كان طريح الفراش في مرضه الأخير، فلم يستطيعوا مقابلته وأعربوا للواء عن شعورهم نحو منقذهم العظيم.